تفسير ابن كثير

يقول تعالى : تقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن أي من المخلوقات وتنزهه وتعظمه وتبجله وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته : . (ففي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد) .

كما قال تعالى : { تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا * أن دعوا للرحمن ولدا } وقال أبو القاسم الطبراني : حدثنا علي بن عبد العزيز حدثنا سعيد بن منصور حدثنا مسكين بن ميمون مؤذن مسجد الرملة حدثنا عروة بن رويم عن عبد الرحمن بن قرط أن رسول ا صلى ا عليه وسلّم ليلة أسري به إلى المسجد الأقصى كان بين المقام وزمزم جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره فطارا حتى بلغ السموات السبع فلما رجع قال : [سمعت تسبيحا في السموات العلى مع تسبيح كثير سبحت السموات العلى من ذي المهابة مشفقات لذي العلو بما علا سبحان العلي الأعلى سبحانه وتعالى] .

وقوله : { وإن من شيء إلا يسبح بحمده } أي وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد ا { ولكن لا تفقهون تسبيحهم } أي لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس لأنها بخلاف لغاتكم وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات وهذا أشهر القولين كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود أنه قال : كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل وفي حديث أبي ذر أن النبي صلى ا عليه وسلّم أخذ في يده حصيات فسمع لهن تسبيح كحنين النحل وكذا في يد أبي بكر وعمر وعثمان حدثنا لهيعة ابن حدثنا حسن حدثنا : أحمد الإمام وقال المسانيد في مشهور حديث وهو همB زبان عن سهل بن معاذ عن ابن أنس عن أبيه Bه عن رسول ا صلى ا عليه وسلّم [أنه دخل على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل فقال لهم : اركبوها سالمة ودعوها سالمة ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق فرب مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكرا منه] .

وفي سنن النسائي عن عبد ا بن عمرو قال : [نهى رسول ا صلى ا عليه وسلّم عن قتل الضفدع وقال نقيقها تسبيح] وقال قتادة عن عبد ا بن أبي عن عبد ا بن عمرو أن الرجل إذا قال لا إله إلا ا فهي كلمة الإخلاص التي لا يقبل ا من أحد عملا حتى يقولها وإذا قال : الحمد فهي كلمة الشكر التي لم يشكر ا عبد قط حتى يقولها وإذا قال : ا أكبر فهي تملأ ما بين السماء والأرض وإذا قال : سبحان ا فهي صلاة الخلائق التي لم يدع ا أحدا من خلقه إلا قرره بالصلاة والتسبيح وإذا قال : لا حول ولا قوة إلا با قال : أسلم عبدي واستسلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وهب بن جرير حدثنا أبي سمعت الصقعب بن زهير يحدث عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن عبد ا بن عمرو قال : [أتى النبي صلى ا عليه وسلّم أعرابي عليه جبة من طيالسة مكفوفة بديباج أو مزورة بديباج فقال : إن صاحبكم هذا يريد أن يرفع كل راع بن راع ويضع كل رأس بن رأس فقام إليه النبي صلى ا عليه وسلّم مغضبا فأخذ بمجامع جبته فاجتذبه فقال : لا أرى عليك ثياب من لا يعقل ثم رجع رسول ا صلى ا عليه وسلّم فجلس فقال : إن نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنيه فقال : إني قاص عليكما الوصية آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين أنهاكما عن الشرك با والكبر وآمركما بلا إله إلا ا فإن السموات والأرض وما فيها لو وضعت لا إله إلا ا عليهما لقصمتهما أو لفصمتهما وآمركما بسبحان ا وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء] ورواه الإمام أحمد أيضا عن سليمان بن حرب عن حماد بن زيد عن مصعب بن زهير به أطول من هذا وتفرد به .

وقال ابن جرير : حدثني نصر بن عبد الرحمن الأودي حدثنا محمد بن يعلى عن موسى بن عبيدة عن زيد بن أسلم عن جابر بن عبد ا Bه قال : [قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : ألا أخبركم بشيء امر به نوح ابنه ؟ إن نوحا عليه السلام قال لابنه : يا بني آمرك أن تقول : سبحان ا فإنها صلاة الخلق وتسبيح الخلق وبها يزرق الخلق] قال ا تعالى : { وإن من شيء إلا يسبح بحمده } إسناده فيه ضعف فإن الاودي ضعيف عند الأكثرين وقال عكرمة في قوله تعالى : { وإن من شيء إلا يسبح بحمده } قال الأسطوانة تسبح والشجرة تسبح ـ الأسطوانة ـ السارية وقال بعض السلف : صرير الباب تسبيحه وخرير الماء تسبيحه قال ا تعالى { وإن من شيء إلا يسبح بحمده } وقال سفيان الثوري عن منصور عن إبراهيم قال : الطعام يسبح ويشهد لهذا القول آية السجدة في الحج وقال آخرون : إنما يسبح ما كان فيه روح يعنون من حيوان ونبات .

قال قتادة في قوله : { وإن من شيء إلا يسبح بحمده } قال : كل شيء فيه روح يسبح من شجر أو شيء فيه وقال الحسن والضحاك في قوله { وإن من شيء إلا يسبح بحمده } قالا : كل شيء فيه الروح وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن حميد حدثنا يحيى بن واضح وزيد بن حباب قالا : حدثنا جرير أبو الخطاب قال كنا مع يزيد الرقاشي ومعه الحسن في طعام فقدموا الخوان فقال يزيد الرقاشي : يا أبا سعد يسبح هذا الخوان ؟ فقال : كان يسبح مرة ـ قلت : الخوان هو المائدة من الخشب ـ فكأن الحسن C ذهب إلى أنه لما كان حيا فيه خضرة كان يسبح فلما قطع وصار خشبة يابسة انقطع تسبيحه وقد يستأنس لهذا القول بحديث ابن عباس أن رسول ا صلى ا عليه وسلّم مر بقبرين فقال [إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان لا يستنزه من البول وأما الاخر فكان يمشي بالنميمة] ثم أخذ جريدة رطبة فشقها نصفين ثم غرز في كل قبر واحدة ثم قال [لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا] أخرجاه في الصحيحين قال بعض

من تكلم على هذ الحديث من العلماء : إنما قال ما لم ييبسا لأنهما يسبحان ما دام فيهما خضرة فإذا يبسا انقطع تسبيحهما واﷲ أعلم .

وقوله { إنه كان حليما غفورا } أي لا يعاجل من عصاه بالعقوبة بل يؤجله وينظره فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر كما جاء في الصحيحين [إن اﷲ ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته] ثم قرأ رسول اﷲ صلى اﷲ عليه وسلّم { وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة } الاية وقال تعالى : { وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة } الاية وقال { كأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة } الايتين ومن أقلع عما هو فيه من كفر أو عصيان ورجع إلى اﷲ تاب إليه وتاب عليه كما قال تعالى : { ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر اﷲ } الاية وقال ههنا { إنه كان حليما غفورا } كما قال في آخر فاطر { إن اﷲ يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا } إلى أن قال { ولو يؤاخذ اﷲ الناس } إلى آخر السورة